مدخل إلى الآداب العالمية	السنة الثانية
أ/إدريس سامية	تخصص أدب

آداب الشرق القديمة

1. الآداب الهندية القديمة

تمهيد:

قيل قديما أن الهند "ملخّص العالم"، لما تزخر به من أجناس وأديان ولغات، بالإضافة إلى اتساع رقعتها الجغرافية، و«الهند منذ القدم تعكس صورة اجتماعية معقدة وغريبة ومخلوطة بأجناس وسلالات وعناصر ثقافية وحضارية مختلفة، فهناك تجتمع خلاصة السلالات البشرية كلها»[1].

دلّت الإحصائيات الرسمية حول لغات الهند الصادرة في 1931م على وجود مائتين وخمسة وعشرين لغة حية، وفي عام 1948 م استقلت شبة الجزيرة الهندية عن الحكم البريطاني، وقسمت إلى دولتين مستقلتين هما الهند وباكستان، وقد اعترف الدستور الهندي بأربعة عشر لغة من اللغات الهندية المحلية لغات رسمية ووطنية، والتي يوضحها الجدول التالي:

التسلسل	اللغات	الأقاليم
1.	السنسكريتية	لغة هندية كلاسيكية، وهي تعتبر بمثابة أم لغات الهند المختلفة.
2.	الهندية	اللغة الرسمية الرئيسية لدولة الهند، وهي منتشرة بصفة خاصة في ولايات: أوترابر أديش، مدهيا براديش، بيهار، راجستان.

[1] محي الدين الألوائي:. الأدب الهندي المعاصر، كتابات معاصرة، القاهرة، ط1، 1972، ص13.

.3	الأوردية	إحدى اللغات الهندية المعروفة المتداولة بصفة خاصة في مناطق: لكهتو، ربهوبال، وحيدر آباد، وميسور، وكشمير وغيرها.
.4	التاملية	تامل نادو (مدراس)
.5	البنغالية	بنغال
.6	الكجراتية	كجرات
.7	المراتية	مهارا شترا
.8	البنجابية	بنجاب
.9	تلوجو	آندهرا براديش
.10	كانادية	ميسور
.11	مليالام	كيرالا
.12	الآسامية	آسام
.13	الآورية	أورديا
.14	الكشميرية	كشمير

لغات الهند وأقاليمها[1]

وجدير بالذكر أن كلا من هذه اللغات لغة حية ذات كيان مستقل، وغنية بالذخائر العلمية والأدبية، ولها آدابها وقواعدها وتواريخها المتطورة، «وهذه اللغات وآدابها تمثل حياة الشعب الهندي العظيم ومشاعره تمثيلا حقيقيا في شتى المجالات»[2]. وأقدم هذه اللغات وأكثرها تأثيرا هي السنسكريتية، إذ يرجع تاريخها في القارة الهندية إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، «وبدأت السنسكريتية تبث نفوذها وترسل شعاعها إلى مناطق آسيا الوسطى والشرق الأقصى منذ القرن الأول قبل الميلاد بطريق "البوذية". ومنذ القرن الثاني للميلاد صارت اللغة السنسكريتية مطيّة الثقافة الهندية إلى جنوب شرقي آسيا، ومنحت لهذه البلاد تراثا مليئا بالتمثيليات والروايات والأشعار والموسيقى والرقص والنحت، وهكذا لم تعد السنسكريتية عامل التجانس للقارة الهندية فقط، بل جعلت الشرق الأقصى وجنوب شرقي آسيا تحت تجانس ثقافي متين،

[1] محي الدين الألوائي:. الأدب الهندي المعاصر، ص19.
[2] المرجع نفسه، ص16.

وخلال هذه الفترة الذهبية تركت السنسكريتية أثرا فعالا في جميع الميادين الآدبية والفلسفية والفنية والعلمية وغيرها»[1].

وقد كتبت أعظم وأشهر آثار الأدب الهندي القديم باللغة السنسكريتية، وفي مقدمتها الأناشيد الدينية المعروفة بـ"الفيدا"، وبها كتبت أعظم ملحمتين هنديتين "المهابهاراتا" و"الرمايانا".

1)- الفيدا: بدأ الأدب الهندي بالفيدا، وفيدا كلمة سنسكريتية تعني المعرفة، وتمثل أناشيد الفيدا المرحلة الأولى من مراحل ظهور الملحمة، وهي المرحلة الدينية، فهي كتاب جمعت فيه الأساطير والأغاني والصلوات والترانيم، والأشعار التي راجت خلال الغارات والغزوات القديمة، وهي ذات طبيعة دينية لأنها قيدت الصراع الذي كان أبطاله قوى طبيعية غير الآلهة والبشر، فقد رأى الهنود مثلا أن الشمس هي المسيطرة على الكون، فجعلوها مصدر البطولة، وهي في صراع دائم مع الظلام، واعتقدوا بأن هنالك آلهة تساعد الشمس ضد الظلام وآلهته. وأقدم صيغ ونصوص الفيدا هي ما يسمى فيدا التجهيز أو الإعداد، التي يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ومعظمها تراتيل للآلهة الفيدية إندرا المحاربة، وآجني إله النار، وسوريا إله الشمس، وفارونا رافع السماء والأرض، والكتب اللاحقة للفيدا هي ياجورفيدا وهي قواعد للقربان، وساما فيدا (ترانيم الكهنة) وإثرفا فيدا التي تقال للتفاؤل بالخير والتساؤل عن الإنسان والعالم. وقد كتبت ملاحق نثرية عديدة للفيدا السابقة لعهد النصرانية، فأولا كانت البراهماتا؛ أي تفسيرات الكهنة للمذهب والأرانيكا (بحوث الغابة)، التي تناقش وظيفة وغرض طقوس القربان، وتتأمل العلاقة بين الإنسان والعالم. والنصوص اللاحقة بعد هذه والمسماة الأبانيشاد؛ أي (التعاليم الروحية)، تكمل هذا البحث في طبيعة الحياة، وتعد هذه التعاليم أعمالا عظيمة في الفكر الروحي والفلسفي.[2]

أدى العمق الفلسفي في أسفار الفيدا وصعوبة فهم طلاسمه على الهندوسي البسيط إلى ظهور مرحلة جديدة من حركة تطور الحضارة الهندية بظهور الأدب الشعبي في شكل الملاحم البطولية التي جاءت نسخا محاكية للأسفار الفيدية في لغة سهلة بسيطة، كما أن ظهور الملاحم البطولية مرتبط بكبر القبائل التي صارت شعوبا وأمما، وصار لكل أمة مكان تحدده قوتها وتحميه فرسانها، فظهرت الصراعات بين الشعوب والممالك نتيجة الرغبة في التوسع وكسب المزيد من الأراضي، فجاءت الملاحم لااغني بتلك الغزوات وبهؤلاء الابطال وهم من الرجال الذين يتحلون بصفات الآلهة. ومن أبرز ملاحم الهنود، ملحمتي "المهابهاراتا" و"الرمايانا".

---

[1] محي الدين الألوائي:. الأدب الهندي المعاصر، ص23.

[2] أدب هندي الأدب القديم، موقع نيرمي، على الرابط: https://nrme.net/detail1307934123.html تاريخ المشاهدة: 2023/02/24.

2)- ملحمة المهابهاراتا: تعد المهابهاراتا أطول قصيدة في العالم، فهي تتكون من مئة ألف بيت من الشعر، وقد أخذت شكلها النهائي بالتدريج بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الخامس ميلادي، وفي نفس الفترة تطورت ونمت الديانة الهندوسية في شكلها التقليدي.

كان يطلق على سكان الهند الأوائل الدرافيديون، نسبة إلى الدرافيدا، الاسم القديم لمملكة التاميل، لكنهم تعرضوا للغزو من قبل الآريين، «والآريون كانوا في الأصل سكان يسكنون هضبة إيران، وكانوا قبائل عديدة منها ما ذهب إلى آسيا الصغرى وأوربا، ومنها ما ذهب شرقا إلى الهند، كانوا أهل بداوة ورحالة ومراعي وحرب وهمجية ولصوصية..»[1]. زحف الآريون شرقا من السهول القريبة من بحر قزوين، وبعد قتال مرير بينهم، هجرت بعض قبائلهم إلى غابات كثيفة قاموا باستيطانها وفلاحتها، وما لبثوا أن استعبدوا الطبقات الوضيعة لفلاحتها، ومنها غزوا السهول الواسعة في الشمال الغربي من بلاد الهند في منطقة البنجاب، وأخضعوا سكانها الدارفيديين وأطلقوا عليهم اسم الداسياس واستخدموهم في خدمة الأرض وجعلوا من أدنى طبقات الهنود، أما من فرّ منهم فقد لاذ بالمستنقعات والغابات الطثيفة وظل فيها. لكن رغم احتقار الآريين للدرافيديين، وسعيهم لمحو ثقافتهم إلا أن الأمر انتهى بالتمازج الحضاري بينهما حيث غلب المعتقد الهندي وإن اصطبغ بالآرية، ونتج عن هذا التمازج بين الثقافات والأعراق من بيض وصفر وسود قوم أطلق عليهم الهندوس.

بعد أن استقر الأمر للهندوس في سهول البنجاب استأنفوا الزحف شرقا وأسسوا ممالك على ضفاف نهر الغانج، وغلبت منهم قبيلتان على غيرهما من القبائل، وهما بانجالا وبهارتا، «ثم نشبت بين القبيلتين حروب في الوقت الذي كانت فيه جيوش الإغريق تحاصر مدينة طروادة، وهذه الحروب هي موضوع ملحمة شعرية طويلة يمتزج فيها التاريخ بالأساطير، وتُسمّى قصة "مها بهاراتا"»[2].

<u>التعريف بالملحمة:</u>

يقول عبد الإله الملاح في تقديمه للترجمة العربية للملحمة: «المهابهاراتا أو "فجيا"، أي أنشودة النصر، هي ملحمة الهند، ما انقطع الناس عن ترددها عبر القرون، فيأخذها الصغير عن الكبير ويرويها الداني للقاصي، وما زال هذا العهد بهم منذ ثلاثين قرنا، أو تزيد حتى غدت تصور روحهم وفكرهم، وترسم لهم عالم القيم والمثل.

[1] عبد الله حسين: المسألة الهندية، كلمات عربية للترجمة والنشر، (د،ط)، القاهرة، جمهورية مصر العربية، (د،ت)، ص 25.

[2] زكي نجيب محمود وأحمد أمين: قصة الأدب في العالم الجزء الأول، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2021، دط، ص43.

وإذن، فالمهابهاراتا باتت عند القوم كنزا يأخذون منه أساطيرهم، وتاريخهم، وفلسفاتهم، وحكاياتهم، مما حمل الهندوس منهم على اعتبارها السفر الخامس من أسفار الحكمة، أو الفيدا، أو إحدى الأوبنيشادات، تلك التعاليم الجوانية العميقة التي تعتبر مصدرا غنيا من مصادر التصوف»[1].

تتألف الملحمة حسب ترجمة عبد الإله الملاح من ثمانية عشر فصلا أو سفرا، لكل منها عنوان كما يلي:

السفر الأول	البداية
السفر الثاني	الاجتماع
السفر الثالث	الغابة
السفر الرابع	ملكة فيراتا
السفر الخامس	الاستعداد للحرب
السفر السادس	بهشيما
السفر السابع	درونا
السفر الثامن	كارنا
السفر التاسع	شاليا
السفر العاشر	ليلة الليلاء
السفر الحادي عشر	النساء
السفر الثاني عشر	العزاء
السفر الثالث عشر	النّصيحة الأخيرة
السفر الرابع عشر	قربان الحصان
السفر الخامس عشر	الأشرما
السفر السادس عشر	حصاد الأرواح
السفر السابع عشر	الصّعود
السفر الثامن عشر	السّماء

[1] المهابهاراتا؛ ملحمة الهند الكبرى، ترجمة وتقديم: عبد الإله الملاح، ورد للنشر والتوزيع، سوريا، ط2، 2017، ص13.

المحاور الموضوعاتية للملحمة:

1- أصول وبواعث الحرب الكبرى بين آل باندو (أمراء باندافا) وحلفائهم، وآل كوروش (أمراء كورافا) أبناء عمومتهم على الملك.

2- المعركة الهائلة التي جرت في سهل كوروكيشترا.

3- عواقب المعركة ومصائر المتحاربين.

عنوان الملحمة:

"المهابهاراتا" في الأصل مكونة من كلمتين هما "مها" التي تعني في السنسكريتية "كبير" أو "عظيم"، أما "بهاراتا" كان زعيم إحدى القبائل الآرية التي استوطنت شمال غرب الهند، ولذلك نجد أنه في المنظور الميثولوجي يقصد بالمهابهاراتا مجموعة من القبائل المنتظمة في ممالك، وينسب أمراؤها إلى أصل مشترك واحد هو "بهرتا" سليل بورو أحد ملوك السلالة القمرية[1]. وإليه تنسب ابقبائل المتصارعة في الملحمة.

أحداث الملحمة:

والمهابهاراتا في الأصل مجموعة من شذرات وقصص مختلفة تدور حول ما يمكن اعتباره نواة ملحمية لا تشغل سوى جزء ضئيل نسبيا من العمل كله، وتتمثل هذه النواة في تقاسم الحكم بين آل باندو وآل كوراش، ثم كيد آل كوراش لأبناء عمومتهم البانداڤاس، ونفيهم وضياع ملكهم، ثم انتهاء فترة النفي وعودة الأمراء الخمسة لاستعادة ملكهم وقيام حرب عظيمة ونهاية الملحمة باتحاد آل باندافاس وزوجهم دروباري في السماء.

تدور قصة الملحمة حول الصراع الأبدي بين الخير والشر، التي يجسدها آل باندافاس وآل كورافاس المنحدرين من سلالة الملك بهاراتا.

[1] هدى ملاحي: " (المهابهاراثا) ملحمة الهند الكبرى مقاربة نقدية واصفة "، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، المجلد3، العدد 6، سبتمبر 2015. ص56.

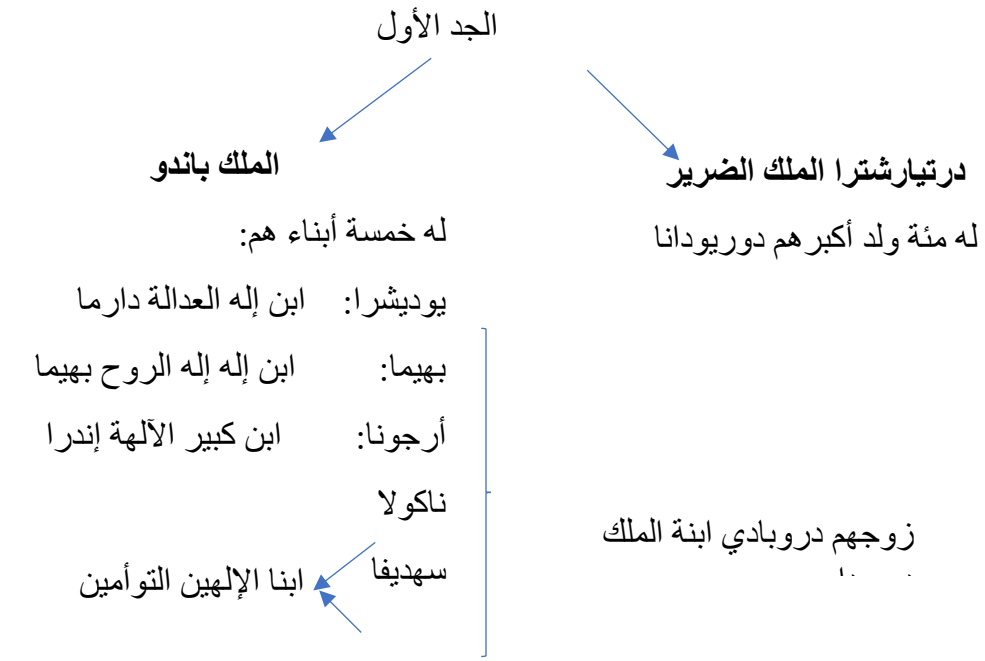

كان درتيارشترا الأعمى ولي العهد لكنه تنازل عن الحكم لأخيه باندو الذي تخلى بدوره عن الحكم ليصبح راهبا متدينا، فعاد الحكم من جديد لدرتيارشترا الملك الضرير الذي سيخلف آخاه ويكفل أبناءه الأمراء الخمسة.

تصور لنا الملحمة درتيارشترا كحاكم ضعيف بسبب عاهته، وقد فوض سلطاته السيادية لابنه دوريودانا الذي سيسعى مرات متتالية إلى اغتيال أبناء عمّه حتى لا يضطر لمقاسمتهم المملكة، وبعد نزال مرير تم إرسال آل باندافاس إلى المنفى، وذلك بعد أن استدرجهم دوريودانا إلى قصر عظيم وقرر إحراقه بمن فيه، لكن آل باندو تفطنوا للمكيدة، وفروا عبر نفق إلى نهر الغانج على قارب صغير، واستقروا في غابة بعد أن ضلوا السير.

تواصل الملحمة وصف مغامراتهم الكثيرة أثناء فترة النفي، ومن ضمنها إقامتهم في بلاط الملك دروبدا، وهناك تزوج الإخوة ابنة الملك التي كانت تعرف باسم دروبدي، كان من تقاليد الهندوس أنه إذا أرادت إحدى فتياتهم الزواج دعت خاطبيها إلى مباراة حربية، يكون للظافر فيها حق زواجها، وقد وصل النبأ آل باندافاس في مخبئهم في الغابة، فتقدم أرجون، أحد الأمراء الخمسة للمباراة متخفيا في زي كاهن برهمي، وقد كان بارعا في الرماية، وقصد عاصمة بانجالا وقصر الملك دروبدي حيث تقام المنافسة، وما إن نفخ في الأبواق إيذانا بوصول الخاطبين إلى حلبة النزال، حتى تقدمت الأميرة دروباري في ثياب

العرس وحول ذراعها طوق من الزهر، وأحضر جنود أشجاء قوسا ضخمة ثقيلة أعدّت للمتنافسين، وقد عجر الفرسان واحدا بعد الآخر في حملها والرمي بها، وبرز من الحشد كاهن برهمي تمكن من حمل القوس ورمى بها مصيبا الهدف في الصميم، فنزعت الأميرة طوق الزهر عن ذراعها وطوقت به عنق الظافر إعلانا لزواجها منه، فسرت موجه من الحزن والتذمر بين الخاسرين وقد كانوا من النبلاء، واستنكروا فوز كاهن على الفرسان الأشراف، وقد كان بين طبقتي الاشراف والكهنة عداوة شديدة، وهنا أعلن أرجون عن حقيقته أميرا نبيلا، وهكذا عاد نجم أمراء باندافاس للصعود بعد زواجهم بابنة الملك دروبادا وتحالفهم معه لاسترداد مملكتهم، وقد أجاب الملك الضرير طلبهم، وتنازل لهم عن النصف الغربي من المملكة، وترك لأبنائه أمراء كورافاس أفضل الأراضي، لكن الباندافاس أخذوا يوسعون في ملكهم ويشيّدون فيه المدن، ومنها مدينة دلهي، حتى أثاروا بنجاحهم كامن الحقد والغيرة في نفس دوريودانا، فدبّر لهم مكيدة بأن أقام حفلا بهيجا في قصره دعا إليه أبناء عمه الخمسة واستدرج أكبرهم إلى لعب القمار، والذي يقع في المكيدة ويخرج من اللعب صفر اليدين ويؤول ملكه إلى منافسه الذي احتال عليه، وقد حكم على الإخوة إثر هذا بالنفي اثنتي عشرة عاما في البراري وعام أخير يستقرون فيه بإحدى المدن على أن لا يعثر عليهم الكورافاس. قصد الإخوة الغابات البعيدة ترافقهم أمهم وزوجتهم دروبادي، ويلقون في حياة الغابة ضروبا من العناء، وفي العام الأخير قصد الإخوة إحدى المدن في هيئة مزرية، فارتدى أحدهم ثوب الرعاة واستُخدِم ثان في مطبخ القصر الملكي، وعمل ثالث في اصطبلات الملك، والتحقت دروباري بحاشية الملكة وصيفة لها، ومضت عشرة أشهر من العام الثالث عشر وابتهج الأخوة باقتراب موعد نهاية النفي، لكن حدث أن قائد الجيش قد رأى دروباري فأحبها، ولما صدت عنه وفشل في إغرائها أساء إليها فقتله أحد الإخوة في ثورة غضب.

كان جواسيس دوريودانا طيلة تلك السنوات يجوبون أرجاء الهند بحثا عنهم، ولكن بدلا من وصول خبر عنهم، بلغ دوريودانا بنبأ اضطراب وقع في "ماتيسا" حيث يقيمون، فانتهر أمراء كورافاس هذه الفرصة لغزوهم، لكن أرجون ساهم في رد الغزو معلنا عن نفسه، وانهزم الكورافاس. ولما انقضى العام الثالث عشر، طالب الباندافاس بملكهم، لكن دوريودانا أخذ يراوغهم متعللا بأن أرجون كشف عن نفسه قبل أن ينقضي العام، ودارت بين الفريقين حرب طاحنة كان النصر فيها للإخوة الخمسة أمراء الباندافاس وقتل فيها كل أمراء الكورافاس .[1]

آل الحكم ليودشترا، وعمّر فيه حتى شعر أنه أتم مهمته في الحياة، وهنا تنازل عن العرش وبدأ رحلة الصعود إلى السماء، هو وإخوته الباندافاس وزوجتهم دروبادي، وقد رافهم في هذه الرحلة كلب كان يمثل معبودهم دارما، وهو إله الواجب والقانون الأخلاقي في الاساطير الهندية. سار الإخوة الخمسة وزوجهم

[1] أنظر زكي نجيب محمود وأحمد أمين: قصة الأدب في العالم الجزء الأول، ص 44 إلى 46.

قاطعين البحار والبراري والعوالم زهدا وعند الجبل الأسطوري "ميرو" تسقط دروباري ميتة في سفحه، واستكرت الرحلة فأخذوا في السقوط واحدا تلو الآخر، وهكذا انتهوا جميعا إلى بلوغ سماء إندرا بأرواحهم، ولم يبق منهم سوى يودشترا مع الكلب، حيث تعرض لمزيد من الامتحانات، من ذلك رفضه دخول الجنة دون الكلب، وسار الإخوة الخمسة، وفجأة انتبه الإله دارما وصعد يودشترا بروحه إلى السماوات العلا، ليتعرض لامتحان أشد، حيث رأى دوريودانا في الجنة وإخوته في الجحيم وهم يستنجدون به، فاختار البقاء معهم، وبذلك نجح في امتحان إندرا، وبذلك بعد عدة مغامرات اتحد الباندافاس من جديد في الجنة واجتمعوا بزوجتهم دروبادي.

الخصائص الملحمية في المهابهاراتا:

تتوفر المهابهاراتا على كل خصائص الملاحم البطولية القديمة، ومنها ما يلي:

* موضوع الملحمة ؛ هو الصراع بين الأمم من خلال أبطالها من أجل مصالحها الحيوية و الدفاع حقها في الوجود، وهو ما يتجلى في موضوع المهابهاراتا التي يدور فيها الصراع حول الملك.

* عالم الملحمة ؛ تصور الملحمة حياة فطرية كانت توفق بين العقل و الخيال و بين الحكاية و التاريخ ، إذ يختص عالم الملحمة بكون المجتمعات البشرية فيه مجتمعات بدائية تؤمن بالخرافة و الأساطير و تسند ما تعجز عنه عادة إلى قوى بشرية و إلهية في آن معا.على سبيل المثال، تزخر المهابهاراتا بالآلهة من الجنسين، ذكورا وإناثا ترافق الأبطال وتراقب أفعالهم وتتحكم في مصائرهم، كما تتقاسم معهم طقوس حياتهم في السلم والحرب، وتتقاسمهم حتى مراسيم الزواج والإنجاب الذي يكون عادة بطريسقة غريبة، ولكل إله وظيفته وأسطورته الخاصة.

* عنصر البطولة ؛ فالملحمة في أساسها شعر بطولي و من خصائص البطل الملحمي أن يكون متفوقا جدا شديد البأس و عظيم الهيبة ، خارق القوى ، كثير الذكاء ، نبيل العاطفة، يمثل العدالة الإلهية و تتجسد فيه قوى الخير أو قوى الشر و هو مركز الثقل في أمته ، فأبطال الملاحم يرتفعون فوق مستوى الإنسانية و يتخطون الواقع بأعمالهم المثالية و فضائلهم حتى يظهروا أنصاف آلهة، والبطل في المهابهاراتا يمثل جانب الخير، وجانب الشر، زهو في الحالتين يوصف بالجمال والشجاعة وضخامة الجسد، فعلى سبيل المثال، يوم ولادة بهيما «قدر له أن يكون قويا متين البنية مما جعل صوتا من السماء يعلن أن العالم لن يعرف بمثل قوته وبأسه فتى بعد اليوم»، كما يتميز البطل في المهابهاراتا عادة بقواه الخارقة، ويعرف منذ ولادته بإتقانه لمهنة ما، نذكر على سبيل المثال ما عرف به باندو وديتارشترا وفيدوزا، «فكان أن جلى باندو في استعمال القوس، وعرف ديتارشترا بقوته الخارقة، أما فيدوز فلم يكن هناك في العوالم الثلاثة من يبلغ شأوه في الحكمة».

* العنصر الديني ؛ فالعلاقة بين الملحمة و الدين علاقة وثيقة ، كون الملحمة وليدة التفكير الديني فقد ظهرت عند شعوب بدائية حيث سذاجة الناس البسطاء الذين كان عهدهم بالحياة قريب و تجاربهم محدودة في تلك الأزمنة السحيقة حين شاهد الإنسان البدائي أحداثا و أشياء عجز عن فهمها و تفسيرها نسبها إلى قوى مجهولة تحيا حوله ، و شخصها في آلهة تحولت شيئا فشيئا حتى صارت مادة صالحة للملاحم ، و بتقدم الزمن ازدادت أنسنة الآلهة وصارت تجسد في شكل آدمي إلى أن كادت تفقد صفات الألوهية و لكن الفكرة الدينية بقيت قائمة .

* عنصر الخوارق : و هي الأحداث التي تتجاوز المعقول و التي أبدعها خيال الشعوب البدائية، و قد أسهم في تكريسها اعتمادها على الدين ، فالخوارق الإلهية لا حدود لها و لا تخضع للمقاييس البشرية العادية كما تصدر الخوارق عن مخلوقات غير مرئية. وفي ملحمة المهابهاراتا تتجلى الخوارق في أفعال الآلهة وأنصاف الآلهة وفي مخلوقات أخرى تسكن الغابات المظلمة كالعفاريت، كما يتجلى عنصر الخوارق في الأشياء على غرار الأسلحة التي يتقاتل بها الابطال، فهي أسلحة ربانية، فأرجونا مثلا وهو يعرض مهارته وبراعته، يطلق سلاحة الناري فإذا بالنار تندلع منه وتمتد مسافة بعيدة، ثم يطلق سلاحه المسمى بالفارونا، ورأى القوم سلاحا من هذه الترسانة من الأسلحة الخارقة التي تعرف بالأنتارداهانا، ومن الأسلحة المستعملة أيضا في الملحمة ما يحصل عليه أرجونا من الإله إندرا في رحلة النفي، «...وشاء يوديشترا عندئذ أن يعرض له أرجونا أسلحته، فتناول من العربة ذلك القوس الرهيب الفانديفا الذي أفاض أينرا في وصف قدرته وحمل بيده البوق المصنوع من صدفة سحرية من أصداف البحر».

* الموضوعية: حيث يعرض الشاعر الملحمي أبطالا بعيدين عن ذاته و يصور حياتهم و أعمالهم و عواطفهم وأهوائهم و كل ما يتصل بهم تصويرا موضوعيا و ليس في الملحمة أية إشارة إلى الشاعر ناظمها أو أي دخل لشؤونه الخاصة و قد يكون لشاعر الملحمة رأيه الخاص لكنه لا يذكره صراحة كأن يورده على لسان أحد الشخصيات مثلا، و الأرجح أن موضوعية الملحمة مستمدة من طبيعة هذا الفن القائم على أسس جماعية و تهدف إلى تصوير عواطف مشتركة و غايات مشتركة و حياة جماعية تذوب فيها الفردية. تنسب ملحمة المهابهاراتا إلى الحكيم الهندي فياسا، وفياسا تعني باللغة السنسكريتية المنظم أو المنسق، لكن لا يعرف لها مؤلف محدد، كما أنها لم تؤلف في فترة واحدة، وتم تداولها مشافهة جيلا بعد جيل، وقدم كل جيل إضافاته، لذا يصعب نسبتها لمؤلف واحد معلوم.

* العنصر القصصي : الأساس في شعر الملحمة أن يكون قصصيا يعنى بسرد حادثة أو سلسلة من الحوادث و الوقائع بشكل إخباري و تتميز الحادثة في الملحمة بأنها جماعية يرتبط بها مصير قوم من الأقوام و الأغلب في شعر الملاحم أن تكون الأحداث ذات أصل في التاريخ و لكن مخيلة الشعب هي التي تضخمها و تمزج فيها بين الحقيقة و الأسطورة، وهي ذات وحدة في الموضوع حيث تتمحور الأحداث

حول حادث أساسي، كما هو الشأن في المهابهاراتا، ومن مظاهر القصص في الملحمة عنصر المفاجأة الذي لا يسمح بأن تسير الأحداث بشكل واحد و في اتجاه واحد ، وتوفر العقدة حيث تتأزم فيها الأحوال حتى تصل إلى نقطة تمثل الذروة فتتشعب الأحداث و تتعقد قبل أن تصل إلى الحل.

* صورة الشعب : من خصائص الملحمة أنها تمثل لنا عالما كاملا بكل ما فيه من تفاصيل و مميزات هذا العالم أنه لا يمكن أن يكون إلا خاصا بشعب دون سواه و من هنا كانت الملاحم حافلة بالصور التي تبرز لنا الأمم بعاداتها و تقاليدها و في هذا يقول هيغل :" من يقبل على دراسة ملحمة ما يكون قد أقبل على دراسة أمة بتاريخها و مزاياها ..."، ومن أمثلة ذلك وصف تقاليد الزواج في المهابهاراتا.

* يتميز الأسلوب الملحمي بالقوة و البطولة و مصدر هذه القوة ما يأتيه البطل من أعمال عظمى و تتجلى قوة الأسلوب في فخامة الألفاظ و في قوة الجرس الذي يحاكي وقع الرماح و قرع الطبول كما تتجلى قوة الأسلوب الملحمي في الصور التي تتخذ عناصرها المتمثلة في اللون و الشكل و الحركة من الدماء الجارية و الجيوش الزاحفة في المعارك . وقد توفرت كل هذه الخصائص في ملحمة المهابهاراتا، التي كتبت باللغة السنسكريتية، وإن كانت هذه اللغة لا تتصف بالقافية إلا أنها توظف التكرارا عنصرا أسلوبيا يحقق الخاصية الشعرية المطلوبة.

3)- ملحمة الرامانايا:

وتسمى ملحمة الإله راما، وتعد الرامايانا نصا أدبيا شعريا يضاهي ملحمة المهابهاراتا، ولعل الرامايانا نالت شهرة أوسع، لأنها تصور مرحلة التواجد الآري في الهند تصويرا دقيقا، وتتجلى فيها الطقوس السائدة في الهند، عقائدهم وتقاليدهم ونظامهم الاجتماعي والسياسي، وهي نص أسطوري يجمع المظاهر الكونية والطبيعة المقدسة.

تحظى الرامايانا بمكانة خاصة لدى الهندوس قديما وحديثا، وفيها إشادة بالأخلاق الفاضلة من خلال شخصيات أسطورية تشكلت عبر مظاهر إنسانية وحيوانية، وأخرى خارقة من نسج الخيال، و«تقدم المثل العليا للأنوثة والرجولة مجسّدة في شخص سيتا وزوجها راما وحياتهما، وتشير الملحمة إلى نظام مثالي للمجتمع بأسره، وكذلك إلى تنظيم مثالي لحياة الفرد»[1]. ويعرف بها صاحبا كتاب "قصة الأدب في العالم" كما يلي: «هي قصيدة تروي مغامرات "راما" وشاعرها هو "فالميكي". ولئن كان أساس "ماها بهاراتا"

[1] محمد إسماعيل الندوي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها، ص155 نقلا عن:
ابتسام لهلالي: بنى المقدس في ملحمة الرامايانا الهندية، إشراف: محمد الأمين لبحري، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في تخصص الأدب العالمي، جامعة محمد خيضر- بسكرة، 2020/2019، ص51.

هو الفروسية في الحروب، فإن محور "رامايانا" هو الحب. وقد ظلت "رامايانا" معينا لا ينضب للمسرح مدى ألف عام أو يزيد زخلاصتها:

أن قبيلة "فيديها" وقبيلة "كوشالا" كانتا جارتين صديقتين، أضافتا إلى رباط الودّ صلة المصاهرة، فتزوّج "راما" – وهو أمير في كوشالا- من "سيتا"- وهي أميرة في فيديها- وتدور القصيدة حول ما لقيه الزوجان في الحياة من بؤس ونعيم»[1].

تشكلت الرامايانا عبر قرون طويلة، وإن كانت الصياغة الأخيرة للملحمة هي من عمل شخص واحد هو الشاعر فالميكي Valmili، «ويعتبر فالميكي على هذا الأساس أول شاعر ملحمي في تاريخ الهند»[2] .

وقصة الرامايانا باختصار هي قصة الحب والغيرة، وما يترتب على الحب من مشاعر طيبة وتضحية وتمسك بالواجب مع نكران الذات، وما ينجم عن الغيرة من كيد وتآمر إلى أن يتغلب الخير على الشر في آخر الأمر. وفي غضون ذلك تعرض لنا الملحمة حياة وتقاليد شعبين قويين من شعوب الهند القديمة هما الكوشالا والفيديها، الذين كانوا يعيشون في الفترة ما بين القرن الثاني عشر والقرن العاشر قبل الميلاد. وكان للملك دازاراثا ملك الكوشالا أربعة أبناء أكبرهم هو راما بطل الملحمة بينما كان لملك الفيديها ابنة وحيدة هي سيتا التي داءت ولادتها من الأرض حيث شق المحراث التربة في الأرض. وقد وضع أبوها الملك جاثاكا اختبارا قاسيا لمن يتقدمون لخطبتها، إذ كان يشترط عليهم أن يفلحوا في استخدام القوس الضخم الذي لم يكن أحد يستطيع استخدامه بنجاح سوى الملك نفسه، وقد نجح راما في الاختبار وفاز بها. وأراد الملك دازاراثا أن يتوج ابنه البكر على عرشه أثناء حياته، وأقيمت الحفلات والمهرجانات لذلك، لكن الزوجة الثانية للملك أرادت أن يتوج ابنها بهارات بدلا من راما، وذلك بعد أن نفثت مربيتها في صدرها سموم الغيرة والحقد عليه. ورضخ الملك لرأيها بعد أن كانت قد أخذت عليه المواثيق مسبقا بأن لا يردّ لها طلبا، وحُكم على راما أيضا بالنفي من مملكته لمدة أربعة عشر عاما استجابة لطلب تلك الزوجة، لكن راما تقبل الحكم في رضا ورضوخ على الرغم من خروج الملك وزوجته عن التقاليد التي تقتضي بتتويج الأخ الأكبر وليا للعهد. وانسحب راما في هدوء دون أن يمس قلبه حزن أو غضب من مملكته أبيه، وخرجت سيتا معه برغبتها، ورفضت أن تقيم مع أمه كي يجنبها الأهوال، وخرج معه أخوه الشقيق لاكشمانا إلى المنفى. كما سار معه ناس كثر حتى بلغوا حدود المملكة، ولكنه تسلل ليلا وهم نيام، ليبدأ حياة النفي والضياع في الغابات رفقة زوجته وشقيقه.

---

[1] زكي نجيب محمود وأحمد أمين: قصة الأدب في العالم الجزء الأول، ص48.

[2] أحمد أبو زيد: "الملاحم كتاريخ وثقافة: مثال من الهند الرمايانا"، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 16، العدد1، أبريل – مايو- يونيو 1985، ص21.

مات الملك قهرا وحزنا على مصير ابنه، كما أن أخاه بهارات نفسه رفض الجلوس على العرش وقصد الغابات راجيا أخاه أن يعود للجلوس على عرش أبيه، لكن راما ابى إلا أن يتم تنفيذ حكم أبيه، ونصح أخاه الأصغر بتولي الحكم بعد أن زوده بنصائح حول أسلوب الحكم العادل وواجبات الحاكم نحو رعيته. عاد بهارات إلى عاصمة ملكه، وحمل معه حذاء راما فوضعه على كرسي العرش رمزا على أحقية راما في الحكم، وظل الأمر على هذه الحال حتى انقضت مدة النفي.

هام راما على وجهه في هضبة الدكن وانتقل إلى جنوب الهند، وقد سجلت الملحمة هذه الرحلة، واهتمت بمقابلاته مع رجال الدين والأولياء، وحملته الرحلة إلى مناطق لم تكن معروفة من قبل فاستكشفها لأول مرة، وابتنى له كوخا في مكان يبعد بحوالي مئة ميل عن بومباي الحديثة، واستقر به المقام مع زوجته سيتا وأخيه لاكشمان. وبهذا تنتهي المرحلة الأولى من مراحل الملحمة، التي كانت تدور بشكل أساسي حول البعلاقات العائلية بكل ما فيها من تضحية وحب وإخاء وإقامة في الصوامع الآمنة لتبدأ بعدها مرحلة ثانية قوامها الحرب والصراع.

تبدأ المرحلة الثانية من الرامايانا باختطاف سيتا، فقد وقعت بعض أميرات الراكشا في حب راما وأخيه لاكشمان اللذين رفضا الاستجابة لهما في أنفة واعتزاز، فاثارت الأميرات أخاهن رافانا ملك سيلان وحرضنه على الانتقام لهن من الإهانة التي لحقت بهن. تصف الملحمة سكان سيلان بأنهم مخلوقات وحشية مخيفة يستطيعون التشكل بأشكال وهيئات مختلفة، وقد أرسل رافانا أحد تلك المخلوقات المهولة بعد أن تجسّد في شكل غزال كي يغري سيتا بمطاردته، حتى إذا ابتعدت عن الكوخ حملها وهرب بها إلى سيلان[1].

عاد راما فلم يجد زوجته، فهام على وجهه في أرجاء الغابة باحثا عنها، فلما علم بحقيقة ما وقع لها قصد مسرعا إلى مكان رافانا وفي طريقه إلى الساحل الجنوبي مرّ بإقليم تسكنه قبيلة متوحشة، صوّرها الشاعر في هيئة قردة، فحاولت تلك المسوخ أن تعوقة عن السير، لكنه شق طريقه بينها دون خوف، فأعجبت القردة ببسالته وحالفته، وتطوعت بجيش جرار يصحب راما ليعينه على عدوّه.

بلغ راما على رأس جماعة القردة الشاطئ الجنوبي، ولما وصل البحرن عادت القردة إلى جبال الهمالايا وأحضرت معها أطنانا من الصخر شيدت بها جسرا يصل ما بين الأرضين، وعطفت آلهة البحر على راما أيضا فرفعت له قاع البحر لتسهّل تشييد الجسر.

[1]انظر أحمد أبو زيد: "الملاحم كتاريخ وثقافة: مثال من الهند الرمايانا"، ص20 و21.

عبر جيش القردة وراما إلى مدينة لانكا، فحاصروها، وتدفق من المدينة سيل من الجند يدافعون عنها، ولبثت الحرب سجالا سبعة أيام، ثم نال اليأس من رافانا فهجم على راما بفأسه لكن راما سبقه بسهم مسحور صوبه إلى صدره، ذلك السهم الذي أخذه من الراهب أجاستيا، فأرداه قتيلا.

أطلق سراح سيتا من سجنها، لكن محنتها لم تنته، فقد ارتاب راما في أن يكون رافانا قد دنّس طهرها، وكان لا بد من إقامة البرهان على طهارتها، ولم يكن البرهان سوى نار مستعرة تلقى المتهمة في لهيبها، فإن كانت آثمة احترقت، وغن كانت بريئة كانت النار عليها بردا وسلاما، وقد ألقت سيتا بنفسها في النار وقد آلمها شك زوجها لكن إله النار آجنى أعادها إلى زوجها الذي ضمها وعيناه تدمعان من الفرح. ورجع الزوجان إلى عاصمة ملكهما في كوشالا بعد انقضاء الأعوام الأربعة عشر، وجلس راما على العرش[1].

تنتهي الملحمة الأصلية عند هذا الحدّ، لكن إضافات أخرى أدخلت على الملحمة في عهود تالية، ومفادها أن بعض الناس ظلوا يتشككون في عفة سيتا رغم اجتيازها اختبار التطهير، وقد راحوا يوجهون اللوم لراما لأنه يحتفظ في قصره بامرأة عاشت مدة طويلة في كنف رجل غريب، وتجد الوشاية طريقها إلى قلب راما وعقله، فيرسل زوجته لتعيش في الغابات من جديد، وهنا تذهب لصومعة الراهب الشاعر فالميكي حيث تضع طفليها، ويتولى الراهب تلقين الولدين قصة أبويهما حتى يكبرا، وفي أحد الاحتفالات ينشدان الملحمة أمام راما ويستغرق ذلك أياما طويلة، ويعرف راما حقيقة الأمر ويحاول أن يرد إليه سيتا مرة أخرى، ولكنها تبتهل إلى أمها الأرض أن تستعيدها من هذه الحياة إن كانت تؤمن بعفتها وطهرها، وتستجيب الأم لنداء الابنة المخلصة الوفية وتبتلعها أمام راما وأمام الجميع[2].

<u>مقارنة بين ملحمة المهابهاراتا والرمايانا[3]:</u>

* تتألف ملحمة المهابهاراتا من شذرات وقصص مختلفة يرتبط بعضها ببعض بطريقة غير محكمة ولا يكاد يجمع بينها سوى كونها تدور حول نواة ملحمية لا تشغل سوى خمس الملحمة التي تضم مائة ألف بيت، وهي مجهولة المؤلف وإن كانت تنسب للشاعر فياسا Vyas الذي يعتبر جامع ومنسق الملحمة فقط، وقد تعرضت المهابهاراتا للكثير من الإضافات عبر العصور ، أما الرمايانا فهي أكثر إحكاما من حيث بنيتها، ويظهر فيها عنصر الاطراد والاتساق والانسجام في وضع خطتها وتنفيذها، وهي تضم حوالي أربعة وعشرين ألف بيت فقط وتنسب لشخص واحد هو الشاعر فالميكي Valmiki، ولم يتعرض نصها الأصلي للكثير من الإضافات والتعديلات مقارنة بالمهابهاراتا لذا جاءت أقصر منها.

---

[1] انظر زكي نجيب محمود وأحمد أمين: قصة الأدب في العالم الجزء الأول، ص50 و51.
[2] انظر أحمد أبو زيد: "الملاحم كتاريخ وثقافة: مثال من الهند الرمايانا"، ص22 و23.
[3] [3] المرجع نفسه، ص18 و19.

* مع أن الحرب تلعب دورا مهما في كلا الملحمتين إلا أنها تشغل مساحة أكبر في المهابهاراتا، وهي حرب تاريخية قامت فعلا بين شعبين من شعوب الهند القديمة، هما الكورو والباتشالا، في حين تحتل الحرب مكانة ثانوية في ملحمة الرمايانا التي تدور نواتها حول الحب، والصراع فيها ليس بين البشر، بل بين البشر ومخلوقات شيطانية مخيفة لها قدرة عجيبة على التشكل، وهي أشبه بما نجده في القصص الخرافية.

* ظهرت المهابهاراتا في القسم الغربي من شمال الهند، وهو القسم الذي يقوم بين الحدود الشرقية للبنجاب ومدينة الله آباد الحالية، بينما نشأت الرمايانا في مملكة كوشالا القديمة التي تقع في الشمال الشرقي لنهر الغانج.

* الصوت الغالب على المهابهاراتا هو صوت الحرب والعدوان، بينما النغمة الغالبة على الرمانايا نغمة هادئة مهادنة بل متدينة وتميل للمحبة والسلام، ومن هنا كانت الرمايانا أقرب إلى قلوب الناس في الهند، وأرقى من المهابهاراتا لأنها تخاطب العواطف والوجدان، وقد لعبت دورا هاما في تماسك المجتمع الهندوسي.